عنا حيا الى موت جديد لينبعث منه ثانية . انه « الآن يخرج منا » ليرحل ، نحن الذين لا نملك — حين يقدم هو دما — الا ان نقدم حبرا ، وحين يقدم شهادة مجسدة لحب الارض الا ان نقدم كلاما،

ونحن بعيدون عنه ،
لنا صورة في جيوب النساء ،
وفي صفحات الجرائد ،
نعلن قصتنا كل يوم ..
لنكسب خصلة ريح وقبلة نار
ونحن بعيدون عنه
نهيب به أن يسير الى حتفه
نحن نكتب عنه بلاغا فصيحا
وشعرا عديئا
ونمضي .. لنطرح احزاننا في مقاهي الرصيف
ونحتج : ليس لنا في المدينة دار
ونحن بعيدون عنه ،
نعانق قاتله في الجنازة ،
ونسرق من جرحه القطن حتى نلمع
اوسمة الصبر والانتظار ..

هذه التلقائية والمباشرة قد تشكل بركة راكدة في مجرى القصيدة العام ، لانها تلتقي مع تلك الصورة العامة والشائعة في قصائد بعض شعرائنا الذين وجدوا في الهزيمة حجة لتجريح الذات ، ولازمات الضمير ، والذين يتصيدون المناسبة تلو المناسبة ليقولوا عين القول السابق عن هذر الشعراء وثرثرتهم ، وعن أفيون المقاهي ، وحشيش الصحف .. الخ. ولكن محمود درويش لا يستغرق حين ينزلق ، فها هو الفدائي — الانبعاث يمضي الى غايته دون ان يلتفت الى الوراء « ليعرف الحد بين الجريمة حين تصير حقوقا وبين العدالة » و« ليس يصدق شيئا وليس يكذب شيئا » ، انه يمضي للموت — الشهادة ، من اجل الحياة ، ليترك في « حركته » ، « سكون » اللاجئين . فهو بذلك لم يكن لاجئا ، « هي الارض لاجئة في جراحه، وعاد اليها » ، ليعيد اليها تفجرها من جديد .

يقول محمود درويش في معرض اجابته عن بعض الاسئلة ، « ان ما يميز الشعر عن سائر اشكال الوعي الاجتماعي هو ان الذات تشكل محوره ولكنها ليست معزولة عن الاخرين مهما تظاهرت بالاستقلال النسبي » (ص ٣٣٨ من « شيء من الوطن » لمحمود درويش) . وهذه الحقيقة تشكل ابرز مزايا قصيدة درويش وخاصة في مجموعته الاخيرة ، واذا كان يتمثل فلسطين امرأة يحبها فيخلع عليها شتى الالوان والاشكال ، فهو هنا يضيف الى ذلك تجربة فنية جديدة ، فقد كتب عددا من القصائد يخاطب بها فلسطين — حبيبته ، او يتقمص حضورها ، او يتحدث عنها، ففي المقطع العاشر من قصائده « المزامير » يتحدث على لسان الفلسطيني — الفدائي ، فيرى ان حالة الاحتضار الطويلة التي عاناها منحته هويته ، وجعلت منه قضية حيث ادخلته البيوت والقلوب والسنابل ، ولكن رعاة الملفات والانقلابات والخطب الغضروفية حسبوه ميتا فمروا ، ولم يلفظوا اسمه : « دفنوا جثتي في الملفات والانقلابات وابتعدوا .. » ولكنه عبر العمر القصير والموت الطويل يفيق فيكتب اسم ارضه على جثته وعلى بندقيته ، ليقول : هذا سبيلي ، وهذا دليلي الى المدن الساحلية « وتحركت ، لكنهم قتلوني » .

وهكذا تتفجر فيه حالة الحصار ، تلك الحالة التي اشار اليها درويش في تلك المقابلة بقوله « اني متشرب حتى النخاع بالاحساس بالحصار، والحصار ليس فكرة ذاتية اخترعتها وليس وهما يأمرني ، انه واقع يعيشه شعبي ، وعندما اكشف نفسيتي المحاصرة اكشف ، في الوقت ذاته نفسية شعبي .»

في قصيدة « مرة اخرى. » يتفجر لدى درويش الموضوع ذاته ، فها هم القتلة ينامون تحت جلده ، ويمر العسكري ليواري شفتيه ، وتصبح الحرية عبئا على قلبه .

ولعل جديدا يطرأ على قصائد الشاعر بعد خروجه، نتلمسه في زوايا « المزامير » هنا وهناك ، وفي بعض الاجزاء الخفية من هذه القصيدة او تلك ، قد لا نملك الجرأة ان نسميه أزمة ضمير حادة تلم بمناضل هجر ساحته ورفاقه ، ولكننا ندعوه حصارا جديدا ، هو اشد كثافة ووجعا ، دون شك ، من كل حصار سابق ، لانه حصار داخلي له رصيد هائل في الذاكرة لا ينضب . ففي اللحظة التي تحترف اشجار بلاده الخضرة يحترف هو الذكرى . واي قسوة في ذلك ، وها هو بين الرماد كلما أطلق رياحه فيه بحثا عن جمرة منسية لا يجد غير وجهه القديم الذي تركه على منديل امه (ص ٢٥) ، حتى ليصرخ بعنف « طوبى للصخرة التي تعشق عبوديتها ولا تختار حرية الريح ! » (ص ٢٢) . وفي قصيدة « أغنية الى الريح الشمالية » مقطع صغير قد يشير بخلاصة ووضوح الى ما ذهبت